الآثار السياسية والاجتماعية في مسيرة الباقلاني العلمية

الباحث / عبد الكريم محمد إبراهيم محمد

الملخص

ومن استقرأ تاريخ الأمة المجيد رأى مواقف العلماء المصلحين، ورثةِ الأنبياء، بالرد على كل ضلالة ومخالفة، والتفنيد لكل شبهة، والصدع بالحق، لا يخافون في ذلك لومة لائم.

وممن قيّض الله لهذا العمل الشريف: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني (رحمه الله)، صاحب التصانيف الجليلة والردود القوية، الفقيه البارع، والمحدث الحجة، والذي انتهت إليه رئاسة المالكية بالعراق في عصره، والذي كان له جهودٌ عظيمة في هذا المضمار، وكان له نزالٌ مع أصحاب العقائد الباطلة أجاد فيه وبرع.

ولمـَّا منَّ الله عليّ بشرف الدراسة والبحث العلمي في صرحٍ جليلِ القَدْر باسمه، عظيم الفائدة بعلمائه، ألا وهو: كلية دار العلوم- جامعة المنيا، زادها الله عزًا وكرامةً، ونفع الله بها العلم وطلبته، فقد عزمتُ -بعد الاستعانة بالله العلى القدير- على العمل على مصنَّف لهذا الإمام العَلَمِ: أبي بكر الباقلاني، وإبرازِ نشاطه في الرُدود، وبيان ما زَخَر بهذا المُصنَّف من فوائد، وهو: ﴿**تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**﴾، ليكون موضوعَ الرسالة البحثية، وعنوانها: ﴿**تَمْهِيْدُ الْأَوَائِلِ وَتَلْخِيْصُ الْدَلَائِلِ فِيْ الْرَّدِّ عَلَى الْمُلْحِدةِ الْمُعَطِّلَةِ وَالْرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ- للقاضي أبو بكر محمد الباقلاني المالكي (٣٣٨ هـ - ٤٠٣هـ)من أول المخطوط (اللوحة: ١) إلى آخر باب الكلام في معنى الصفة (اللوحة ١٢٦)دراسة وتحقيق**﴾

وأسأل الله (ﷻ) التوفيق والسداد والعون، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

summary

Whoever studies the glorious history of the nation will see the positions of the reformed scholars, the heirs of the prophets, by responding to every misguidance and opposition, refuting every suspicion, and cracking the truth, without fearing the blame of the blamer.

And among those whom God has appointed for this honorable work: Judge Abu Bakr Muhammad ibn al-Tayyibibn Muhammad ibnJa`faribn al-Qasim al-Baqlani (may God have mercy on him), the author of venerable classifications and strong responses, the skilled jurist, the modernizer of the argument, the one who led the Maliki leadership in Iraq in his time, and who had great efforts He was great in this field, and he had a fight with the people of false beliefs in which he excelled and excelled.

And when God bestowed upon me the honor of studying and scientific research in an edifice of great destiny in his name, of great benefit to his scholars, namely: the Faculty of Dar al-Uloom - Minya University, may God increase it with honor and glory, and God benefited by it knowledge and his students, so I resolved - after seeking the help of God Almighty - to work a work for this Imam flag: Abu BakrAlbaqlani, highlighting its activities in the responses, and the statement of what teem this workbook is from the benefits, which is: the first □tmhid and summarize Aldlail□, to be a research subject of the message, entitled: early □tmhid and summarize the evidence in response to the atheistic broken The Rafidah, the Kharijites and the Mu'tazila - by Judge Abu Bakr Muhammad al-Baqlani al-Maliki (٣٣٨ AH - ٤٠٣ AH) from the beginning of the manuscript (Plate: ١) to the end of the chapter on the meaning of the adjective (Plate ١٢٦) Study and investigation□

And I ask God (□) for success, payment and assistance, for He is the Guardian of that and the One who is able to do so

أهمية الموضوع.

وتبرز أهمية الموضوع في النقاط التالية:

١- الاستفادة مما ورَّثه علماءُ الأمة وأعلامُها من علمٍ نافعٍ، وذلك بإخراجه وتقديمه كما تركوه صافيًا نقيًا.

٢- إبرازُ جهود عَلَمٍ من أعلام الدعوة، ممن حمل لواء الدفاع عن العقيدة في عصر كان يَمُوج بالخلافات وتَنْشَطُ فيه الفِرَق ويعْلو فيه صوت الشبهات، ولا سيما في جانب مسائل العقيدة.

٣- يُعَدُّ المُصنِّف (رحمه الله) من أشْهر وأَجّل علماء عصره، ومن أبرز علماء الكلام، وصاحب سيرة طيبة على الجانبين: العلمي والعملي، فهو عالم متبصر جليل له وزْنُه وقيمته.

٤- يُعَدُّ المُصنَّف من أثرى وأقْيَم ما كُتب في علم الكلام (العقيدة)، حيث حَوَى بين طيَّاته ردودًا على المُخالفين من المسلمين وغير المسلمين في مسائل شَتَّى، وفُنِّدت فيه شُبُهات عِدَّة، فالمُصنَّف موسوعة قيِّمة، وحقل علمي يستحق ويستوجب خدمته.

٥-وُجود بعض الفرق والأفكار التي تناولها المُصنِّف (رحمه الله) بالرَّد، وتجددُ محاربة بعضها لعقائد المسلمين، مما يدعو إلى إعادة تسليط الضوء على تراث علماء الأمة في كشف أباطيلهم والرد على شُبُهاتهم.

أولا: الحياة السياسية

من الجدير بالذكر: بيان الحياة السياسية في عصر القاضي الباقلاني (رحمه الله) (القرن الرابع الهجري) لِمَا شهدته الأمة الإسلامية من اضطراب سياسي كبير في كامل أرجائها، فقد عاصر القاضي الباقلاني (رحمه الله) وجود عدة دويلات وإمارات، وكذا ثلاثة خلفاء لبني العباس، فضلًا عن أمراء وملوك الدُويلات والإمارات الأخرى.

فأما التي عاصَرَها الباقلاني (رحمه الله) فكانت:

١- الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ هـ-٤٢٢ هـ).[1]

---

(١) أسسها: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ الْهِشَامِيُّ؛ انظر: **البداية والنهاية** (١٣/٣٣٠-وما بعدها)، **المختصر في أخبار البشر**: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ) (المطبعة الحسينية المصرية، ط ١) (٢/٢-وما بعدها).

٢- الدولة الفاطمية بمصر وبالشام (٢٩٨ - ٥٦٧ هـ).[١]

٣- الدولة الحمدانية بالشام والحجاز (٢٩٢ - ٣٩٢ هـ).[٢]

٤-دولة آل زياد باليمن (٢٠٣ -٤١٢ه).[٣]

٥-دولة آل يعفر بصنعاء (٢٢٥- ٣٩٣ هـ).[٤]

٦- الدولة الغَزْنَوِيَّة في بلاد ما وراء النهر (٣٥١ ه- ٥٤٣ ه)[٥].

۞ وأما خلفاء بني العباس الذين عاصرَهم الباقلاني (رحمه الله) فكانوا:

١- المطيع لله ابن المقتدر (٣٣٤ ه-٣٦٣ ه)[٦].

٢- الطائع لله علي أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع (٣٦٣ ه-٣٨٢ ه)[٧].

٣- القادر بالله أبو العباس أحمد (٣٨١ ه-٤٣٢ ه)[٨].

عاش الباقلاني (رحمه الله) في عصر ضعفت فيه سلطة الخليفة، للحدِّ الذي لم يبق له إلا ذكر اسمه في خطب الجمعة،أو يُنقش على العملة، وقد انقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات وإمارات مستقلة أو شبه مستقلة[٩].

---

(١) **الدولة الفاطمية**: أسسها المهدي صاحب أفريقية أول خلفاء الفاطميين الأدعياء الكذبة، وهو أبو عبيد الله المدعي أنه علوي، وتلقب بالمهدي انتشاراً، وبني المهدية ومات بها عن ثلاثة وستين سنة، وحقيقة الدولة الفاطمية أنها دولة رافضية باطنية، وانتسابها إلى ولد علي (ﷺ) انتساب باطل لا يصح، وأهل علم الأنساب من المحققين ينكرون دعوى ذلك النسب، فحقيقة مذهبهم الكفر المحض واعتقادهم الرفض؛ انظر:**وفيات الأعيان** (١١٧/٣-١١٨)، **البداية والنهاية**(١٩١/١١)،**مجموع الفتاوى**: ابن تيمية (١٢٠/٣٥).

(٢) **الدولة الحمدانية** دولة من أسرة عربية من قبيلة تغلب بجوار الوصل اعتنقت المذهب الشيعي الإمامي الاثنا عشري، جدها حمدان،والذي كان له شأن في تلك الديار، واستولى ابنه محمد بن حمدان على ماردين، فأخرجه منها الخليفة المعتضد، وتولى أخوه أبو الهيجاء بن حمدان أمير على الموصل، وما يليها سنة ٢٩٢هـ واشتد ساعده، وزادت قوة الحمدانيين في ذلك الحين، وصاروا دولة حكم منها أربعة أمراء في الموصل، وخمسة في حلب، حتى خرجت الموصل منهم إلى البوئيين سنة ٣٨٠هـ، واستولى الفاطميون على حلب سنة ٣٩٤هـ حيث قضوا على دولتهم، انظر:**خطط الشام**: محمد بن عبد الرزاق بن محمّد، كُرْد علي (ت ١٣٧٢هـ) (مكتبة النوري، دمشق، ط ٣، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) (١٨٧/١)، **موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧ هـ/٩٦ - ٩٧ م**: أحمد معمور العسيري (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م) (٢٢٨/١).

(٣)**دولة آل زياد**: أسسها محمد بن عبد الله بن زياد، من أولاد زياد بن أبيه، عندما أرسله المأمون بن هارون الرشيد إلى اليمن إلى تلك المنطقة كي يقضي على حركة علوية، ويسوي الأمور فيها، فاستولى على المنطقة واستقل بها، وهو الذي اختط مدينة (زبيد) في عام (٢٩٨م-٢٠٤هـ) واتخذها عاصمة لإمارته التي تعتبر أول إمارة شبه مستقلة في اليمن عن العباسيين، وظلت قائمة حتى مقتل عبد الله بن أبي الجيش إسحاق بن ابراهيم ابن محمد بن عبد الله بن زياد وقيام نجاح مولاه بالاستيلاء على الامارة وإقامة إمارة آل نجاح بدلاً عنها وذلك في عام ٤١٢ه- ١٠٢١م؛ انظر:**سير أعلام النبلاء**(٥٣٦/١١)، (١٣١/١٨)، **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**: الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الغساني (ت ٨٠٣ هـ) (دار البيان - بغداد / دار التراث الإسلامي: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م) (٩٩)، **موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧ هـ/٩٦ - ٩٧ م**: أحمد معمور العسيري (٢١٩).

(٤) **دولة آل يعفر**: أو "اليعفرية" أسسها إبراهيم بن يعفر الحميري (٢٢٥ - ٢٤٧ ه)، وكان نائبًا عليها من قبل الوالي العباسي، فاستقل بها، ويعتبر حفيده يعفر بن عبد الرحيم بن إبراهيم (٢٤٧ - ٢٥٩ ه) رأس الدولة، ومبدأ استقلالها الحقيقي، وكانوا يدفعون في البداية جزية لآل زياد، وبدأ استقلالهم الحقيقي (٢٤٧ هـ)، دارت معارك كثيرة بينهم وبينالأئمة الزيدية كما أنهم غزوا القرامطة وأبادوهم، وفي عام (٣٩٣ ه) دخلوا في طاعة الإمام العياني الزيدي وانقرضت دولتهم؛ انظر:**رسائل ابن حزم الأندلسي**: ابن حزم الأندلسي الظاهري (المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨٧ م) (٨٧/٢)،**تاريخ ابن خلدون** (٢٤٣/٢)، **موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر** (٢١٩).

(٥) **الدولة الغزنوية**: أنشأها محمود بن سبكتكين الأمير المجاهد سيف الدولة، كان صاحب بلخ وغزنة وضم بست وغزنة وما وراء النهر وخراسان وسجستان، والتي عرفت بالدولة الغزنوية؛ انظر: **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير (٥/٧-٩/ ٣٥)، **المختصر في أخبار البشر**: أبو الفداء (٤٧٨/١)،**سير أعلام النبلاء** (٥٠٠/١٦).

(٦) **المطيع لله**: أبو القاسم لفضل ابن المقتدر جعفر ابن المعتضد أحمد بن الموفق العباسي، أمه أم ولد اسمها شغلة، وفي قول: مشغلة، ولد عام ٣٠١هـ، وبويع بالخلافة عند خلع المستكفي سنة ٣٣٤هـ، ثم خلع منها سنة ٣٦٤هـ، وولى ابنه الطائع، ثم مات سنة ٣٦٥ه، وعمره (٦٣) سنة، ومدة خلافته (٢٩) سنة وأشهر؛ انظر: **تاريخ بغداد** (٣٥٦/١٤)، **سير أعلام النبلاء** (١١٣/١٥).

(٧) **الطائع لله**: أبو بكر عبد الكريم ابن المطيع لله الفضل ابن المقتدر جعفر بن المعتضد العباسي، الذي تنازل أبوه عن الخلافة وعمره (٤٣) سنة، وذلك في سنة ٣٦٣ ه وتوفي سنة ٣٩٣ ه؛ انظر: **تاريخ بغداد** (٣٥٩/١٢)، **سير أعلام النبلاء** (١١٨/١٥).

(٨) **القادر بالله**: أبو العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد أحمد بن ولى العهد الموفق طلحة، أمه أم ولد تسمى «يمن»، ولد سنة ٣٣٦ ه، بويع بالخلافة سنة ٣٨١ ه، وتوفى سنة ٤٢٢ ه، وقيل: ٤٢٣ ه؛ انظر: **تاريخ بغداد** (٦١/٥)، **سير أعلام النبلاء** (١٢٧/١٥).

(٩) انظر: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٦٩٥هـ) (دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٨٣ م) (١٥٦/١، ١٧٦، ١٩٦-١٩٧)، **تاريخ ابن خلدون** (٢١٤/٣).

وكان من أقوى الدويلات في المشرق دولة بني بُوَيْه، نسبة إلى "بُوَيْه بن فَنَّاخِسْرُو" والملقب بأبي شجاع، والمتتبع لتاريخ هذه الدولة، يجد أنها تنسب إلى أبنائه، فهم المؤسسون لها[1].

ولما دخل البويهيون بغداد همَّشوا وأذَلُّوا الخليفة، ولم يتورعوا أن يكتبوا على مساجدها لعن معاوية بن أبي سفيان (ﷺ)، ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكا -يعنون: أبا بكر الصديق (ﷺ)- ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبا ذر الغفاري – يعنون: عثمان بن عفان (ﷺ)-... وغير ذلك من السب الصريح لأصحاب النبي (ﷺ)، وأمروا الناس في عاشوراء بإغلاق محلاتهم وأن يلبسوا السواد، وأمروا بإخراج النساء منثورات الشعر، مسودات الوجوه، مشقوقات الثياب نائحات، لاطمات الوجوه، إلى غير ذلك من مظاهر التشيع والرفض[2].

في سنة (٣٦٧ هـ) آل أمر بني بُوَيْه إلى عضد الدولة بن ركن الدولة، فنقل مركز الدولة إلى بغداد وبقيت بغداد مركزًا للدولة إلى سنة (٣٨٩ هـ) وقد أظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة شيئًا لم يكن من قبل، وأرسل إلى الخليفة بالأموال والأمتعة، حيث نقلها بهاء الدولة[3] إلى شيراز مرة أخرى.[4]

وقد سقطت دولة بني بُوَيْه سنة (٤٤٧ هـ) بعد أن دبَّ الخلاف والنزاع بين بنيها،فأخذت دولتهم في التقلص والضعف، حتى زالوا[5].

هذه النبذة التاريخية المختصرة عن الحالة السياسية في بلاد المشرق الإسلامي على وجه العموم، وعن البويهيين على وجه الخصوص،تُظهر حالة عدم الاستقرار سياسيًا، وتفشي الفتن اعتقاديًا في تلك الحقبة، قد يستثنى من ذلك فترة حكم عضد الدولة البويهي، والذي كان بينه وبينالباقلاني (رحمه الله)

---

(1) الأبناء الثلاثة لبُوَيه بن فَنَّاخِسْرُو الديلمي، هم: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد، وقد التحق هؤلاء الإخوة في جيش الديلم، وترقَّوا حتى أصبحوا من قواد الجيش، وعظم شأنهم، حتى تملكوا بلاد فارس وهمدان والري وأصبهان وغيرها، بدأ نفوذهم عام (٣٢٠ ه)، وأسسوا دولة منفصلة عن الدولة العباسية، واكتمل سلطانهم على مساحة شاسعة من أملاك الدولة العباسية، وطلبوا من الخليفة العباسي الاعتراف بهم، فتم لهم ذلك، ثم كاتب قواد بغداد معز الدولة، وطلبوا منه المسير إليهم، فدخل بغداد عام (٣٣٤ ه)، وقابله الخليفة المستكفي، وخلع عليه، ولقبه، ولقب أخويه، وأصبح لبني بويه بعد ذلك مطلق التصرف في العراق، وفي عهد عضد الدولة بن ركن الدولة بلغوا أقصى درجات السلطان، وبعد وفاته دبت الحروب بين أبنائه الثلاثة، واستمرت بين أخلافهم، حتى دمرتهم جميعًا، وكانت نهايتهم على يد السلاجقة سنة (٤٤٧ ه)، وبنو بويه شيعة حاقدون متعصبون، أتوا بأفعال منكرة، وطامات عجيبة؛ انظر: **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير (٢٣٠/٦)، **العبر في خبر من غبر**: شمس الدين الذهبي (دار الكتب العلمية – بيروت)(١٣/٢، ٤٦، ٢٨٩)،**البداية والنهاية** (١٧٧/١١).

(2) انظر: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم:** ابن الجوزي(٧/٧-٨)،**الكامل في التاريخ**: ابن الأثير (٢٣٩/٧-٢٤٠)، **البداية والنهاية** (٢٢٥/١٥).

(3) **بهاء الدولة**: السلطان فيروز بهاء بن عضد الدولة بن ركن الدولة حسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي؛ أحد ملوك بني بويه؛ وهو الذي قبض على الخليفة الطائع، وخلعه من الخلافة، وكان ظالمًا غشومًا سفاكًاللدماء ولم يكن في بني بويه أظلم منه، ولا أقبح سيرة، حتى إن خواصه كانوا يهربون من قربه، مات سنة ٤٠٣ ه؛ انظر:**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: ابن تغري بردي (٢٣٣/٥).

(4) انظر: **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير (٣٥١/٧)، **البداية والنهاية**(٣٥٦/١٥).

(5) انظر: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم:** ابن الجوزي(٣٤٧/١٥)، **البداية والنهاية** (٧٢٩/١٥).

اتصالًا وألفة.

وقد أثمر هذا التواصل بينهما عن دور سياسي بارز للباقلاني (رحمه الله) في تلك الفترة، يظهر هذا الدور جليًا عندما استقدمه عضد الدولة من البصرة إلى شيراز، وألحقه عضد الدولة في قصره بمجالس العلماء[١].

في سنة(٣٧١ هـ)لجأ أحد قادة الروم إلى عضد الدولة طلبًا للنصرة والحماية بعدما فرّ من ملك الروم "باسيليوس الثاني"[٢]، وكان "ورد" قد حاول أن يستولي على الملك ويطيح به، فأرسل إلى عضد الدولة يعرض عليه تسليم القائد "ورد"، وبالمقابل يقوم "باسيليوس الثاني" بإطلاق سراح جميع أسرى المسلمين في بلاد الروم، فوقع اختيار عضد الدولة على الباقلاني (رحمه الله) ليكون على رأس السفارة التي أرسلها إلى ملك الروم "باسيليوس الثاني"، وهنالك جرت له مناظرات مع علماء النصرانيّة بين يدي ملكها، عاد الباقلاني (رحمه الله) بمشروع هدنة بين الطرفين ومعاهدة حول تبادل الأسرى.[٣]

هذا، فضلًا عما كان الباقلاني (رحمه الله)يقوم به من مناظرات،إما بحضرة عضد الدولة أو بإيذانه.

ثانيا: الحياة الاجتماعية

عند الحديث عن الحالة الاجتماعية في عصرٍ ما، أو مكانٍ ما، فإنما يقصد به ذكر وبيان الطبقات من حيث الجنس والدين، وكذا العلاقة بين هذه الطبقات، ويدخل في ذلك -أيضًا- حياة الأفراد والأُسَرِ، ومظاهر المجتمع العامة.

وبالنظر في عصر الباقلاني (رحمه الله) نجد أن المجتمع قد تنوعت وتعددت عناصره، فكان فيه العرب والفرس والأتراك وأهل المغرب، وغيرهم، ولمّا ءالَ الأمر إلى بني بُوَيْهٍ وقع التنافس بين الأتراك، والديلم الذين ينتسب البويهيون إليهم، للحدِّ الذي أوقع الانقسام بين المسلمين إلى شيع وطوائف، وقد زاد الاحتقان بين السنة ذوي الأغلبية، والشيعة ذوي السلطة،

---

(١) انظر: **تاريخ بغداد**: الخطيب البغدادي (٣٦٤/٣)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**: ابن فرحون (٢٢٨/٢).

(٢) **باسيليوس الثاني**: أو "باسيل الثاني" الإمبراطور البيزنطي، حكم من سنة (٣٦٥ م) إلى سنة (٤١٦ هـ)؛ انظر: **قصة الحضارة**: وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت (ت ١٩٨١ م) (دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) (١٦٦/١٤).

(٣) انظر:**تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء**: يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي (ت ٤٥٨هـ) (جروس برس، طرابلس - لبنان: ١٩٩٠ م) (١٨٩)، **ترتيب المدارك**(٦٠/٧)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: ابن الجوزي (٩٦/١٥)،**الكامل في التاريخ**: ابن الأثير (٣٦٩/٧، ٤٠١).

مما جرّ المجتمع إلى التفكك والتنازع[١].

وكان من مظاهر الاضطراب -أيضًا- العصبية المذهبية التي وصلت حدَّ التباغض والعداء، وكان من صور هذه العصبية ما قام به بعض عوام مقلدة الحنابلة من قيامهم بمنع دفن ابن جرير الطبري من الدفن نهارًا، فدفن ليلًا بداره، وكان الباعث على فعلهم هذا أن غفل الطبري ذكر الإمام أحمد في أحد كتبه الذي صنفه عن الفقهاء[٢].

ثالثا: الحياة العلمية

في ظل هذه الحالة من الاضطراب وعدم الاستقرار -في الحالتين السياسية الاجتماعية-التي سادت في ذلك الوقت، إلّا أن الحركة العلمية والثقافية والفكرية ازدهرت ونمت،ويرجع ذلك لأسباب عدة، أهمها:

أولًا: ازدهار حركة الترجمة، حيث كان القرن الرابع هو العصر الذهب لحركة الترجمة، والتي أدّت إلى نضج الملكة البحثية والتأليفية عند المسلمين، وسعدت على انفتاح مداركهم إلى ما حولهم من ثقافات مختلفة[٣].

ثانيًا: ظهور الفرق وانتشارها، حيث كان العلم والتأليف والبحث أحد أهم الأدوات للدعوة إليها، والدفاع عن مبادئها وأفكارها[٤].

فقد زاد الإنتاج التأليفي للعديد من الفرق والمدارس، وكان الاهتمام الأكبر منصبًا على علوم الاعتقاد،ولعل ما ذُكر من مصنفات الباقلاني (رحمه الله) والتي كان أكثرها في مباحث العقيدة،وفي باب الردود على الفرق ونقدها، والتي اشتملت بين طياتها على بيان مذهبه الذي يدين به وينتصر له.

وقد كان لمجالس المناظرات والحجاج الذي كان بين الفرق والمذاهب أثر كبير في هذا الازدهار وتلك النهضة العلمية والثقافية، حتى صار من سمات ومميزات هذا العصر[٥].

ثالثًا: ما كان عليه الأمراء والقواد والوزراء من الحرص على أن يكون

---

(١) انظر:**تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: حسن ابراهيم حسن (مكتبة النهضة المصرية-القاهرة- ط ١٤، ١٩٩٦ م) (٤٣٠/٣-٤٣٤).

(٢) انظر: **الكامل في التاريخ** (٦٦٧/٦-٦٦٨).

(٣) انظر:**تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: حسن ابراهيم حسن (٣٣٩/٣)، **أثر جهود السريان على الحضارة العربية الإسلامية**: د. أحمد محمد على الجمل (كلية اللغات والترجمة ــ جامعة الأزهر - القاهرة ٢٠٠٥م) (٢٨).

(٤) انظر: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: حسن ابراهيم حسن (٣٣٩/٣).

(٥) انظر: **ظهر الإسلام**: أحمد أمين (لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، ١٩٣٦ م) (١-٣٥).

من بين جلسائهم وحاشيتهم:العلماء والمتكلمين والفقهاء، وكانوا يعدون هذا مدعاة للفخر والكرامة، للحدِّ الذي حمل عضد الدولة (المعتزلي الرافضي) على تقريب الباقلاني (رحمه الله) واستجلابه من البصرة إلى شيراز لكي يمثل أهل السنة في مجالسه العلمية.

رابعًا: لعل من أهم أسباب ازدهار الحركة العلمية والثقافية والفكرية، الاضطراب السياسي الذي كان من سمات هذا العصر، والذي قد يكون باعثًا ودافعًا لكثير من ذوي العقول النيرة والبارعة إلى العدول عن العمل السياسي والانصراف عنه، والتوجه إلى العمل العلمي والإنتاج الفكري.

ومن هذا المنطلق نقف على حقيقة مهمة، ألا وهي أن الأحوال السياسية والاجتماعية في زمن أو بقعة ما، قد لا تؤثر -إيجابًا أو سلبًا، أو قوةً أو ضعفًا- على الحياة العلمية، ففي ظل الضعف والاضراب السياسي والاجتماعي، قويت وازدهرت الحياة العلمية في عصر الباقلاني (رحمه الله)

رابعا: مكانة كتاب تَمْهِيْدُ الْأَوَائِل وَتَلْخِيْصُ الْدَلَائِل وأهميته.

يعتبر هذا الكتاب "التمهيد" من أهم كتب الردود، وذلك لتغليب الباقلاني (رحمه الله)فيه أسلوب الحجاج العقلي، فقد ضمَّنه ردودًا قوية على المعتزلة والروافض والخوارج، وكذا المنجمين، والثنوية، والديصانية، والمجوس، والبراهمة، واليهود، والنصارى، وغيرهم ممن سيأتي التعريف بهم، مع أبواب أخرى في تفصيل مسائل الصفات والقدر وغيرها.

كما أنه تعرض لبعض المسائل المهمة، وذلك بإثباتها بالأدلة العقلية في دحض منكري نبوة النبي (ﷺ) ومنكري إعجاز القرآن وأنه من عند الله (ﷻ)، ومعلوم أن منكر هذا لا يفحمه الدليل النقلي، فهو لا يؤمن بالأدلة النقلية ولا يقبلها.

ولا شك أن هذا الكتاب من أهم الكتب الكلامية التي تعلق بها أهل السنّة والجماعة، لاشتماله على أدلة المذهب في قضايا علم الكلام والعقائد وأدلة الجدل التي تعضد مذهبهم.

ولذا فلا عجب أن يتعلق أهل السنة بهذا الكتاب تعلقًا شديدًا، لأنه أجمع الكتب التي تبصرهم بمسائل الخلاف العميقة التي تمس العقيدة، فقد اشتمل

الكتاب على أقوى الأدلة الجدلية، وأحكم البراهين العقلية، التي تعضد مذهبهم، وتكسب اعتقادهم مناعة ورجاحة ليتميزوا على بقية المذاهب والفرق.

ولعلَّنا -في هذه الآونة- بحاجة لمثل هذه المنهجية في الحجاج، في ظل هذه المدِّ العاتي لتيار الإلحاد، ولا سيما بين الشباب الذي لا يصلح معه إلا مثل هذه الطريقة التي تثير فكره وتستفز وجدانه.

ولأهمية الكتاب في هذا الباب قال عنه ابن قيم الجوزية:

"كِتَابِ التَّمْهِيدِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِهِ"[1].

والباعث على تأليف الباقلاني (رحمه الله) أنه ألفه للأمير صمام الدولة بن عضد الدولة وولى عهده،فقد دفعه عضد الدولة البويهي إلى الباقلاني (رحمه الله) ليؤدبه، ويبين له فيه ما يعتقد أهل السنة، والرد على أهل البدع والأهواء، وغيرهم، وخاصة المعتزلة. وقد بين فيه الباقلاني (رحمه الله) فساد عقائد هذه الطوائف، وذكر بعض فضائل الصحابة والخلفاء الراشدين الأربعة[2].

ولذلك فقد صدَّره الباقلاني (رحمه الله) بقوله:

"أما بعد فقد عرفتُ إِيثَار سيدنَا الْأَمِير... لعمل كتاب جَامع مُخْتَصر مُشْتَمل على مَا يحْتَاج إِلَيْهِ فِي الْكَشْف عَن معنى الْعلم وأقسامه وطرقه ومراتبه، وضروب المعلومات، وحقائق الموجودات...وجُملًا في الْكَلَام على سَائِر أهل الْمِلَل الْمُخَالفين لملة الْإِسْلَام من الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس وَأهل التَّثْنِيَة وَأَصْحَاب الطبائع والمنجمين، ونُعَقِّب ذَلِك بِذكر أَبْوَاب الْخلاف بَين أهل الْحق وَأهل التجسيم والتشبيه وَأهل الْقدر والاعتزال والرافضة والخوارج..."

وقد يُطرح سؤال يتعلق بهذا الأمر، وهو: إذا كان هذا الكتاب من الأهمية بمكان، فلم لم يُصنّف في شرحه، أو تُكتب عليه الحواشي؟

ويُجاب على هذا السؤال من وجوه:

الأول: أن انعدام الشروح والحواشي المكتوبة عليه لا يعني أنه لم يتعرض للشرح والتدريس، فمن الوارد ألّا تُدون شروحه.

الثاني: أنه قد ذُكر له شرح باسم "التسديد في شرح التمهيد" "قال سزكين

---

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٢٩٩).

(2) انظر: ترتيب المدارك (٧/٥٥).

عن الكتاب:

"ويوجد له شرح بعنوان «التسديد في شرح التمهيد» للقاضي أبي محمد عبد الجليل بن أبى بكر الربعي[1]"[2]

(1) هو: عَبْد الجليل بْن أَبِي بَكْر الرَّبَعيّ القَرَوِيّ، أبو القاسم الدَّيباجيّ، المعروف بالصابوني، المتكلم، يعرف بالديباجي وبابن الصَّابُوني ويكنى أَبَا القَاسِم، صَاحب الباقلان، وكَانَ عَالما بالأصول مدرسا لَهَا، ولَه فِيهَا تصانيف منها كتاب «المستوعب» في أصول الفقه، وكتاب «نُكَت الانتصار» اختَصَرَهُ من كتَاب الانْتِصَار للباقلاني، توفي(٤٦١ ه- ٤٧٠ هـ)؛ انظر: **التكملة لكتاب الصلة**: ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ) (دار الفكر للطباعة - لبنان- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م) (١٣٣/٣)، **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام**: شمس الدين الذهبي (دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣ م) (٣٠٤/١٠).

(2) انظر: **تاريخ التراث العربي (علوم القرآن والحديث - التدوين التاريخي - الفقه - العقائد)**: الدكتور فؤاد سزكين (٥٠/٤).

الخاتمة

بعد أن رست سفينة البحث إلى شاطئ الوصول، نخلص إلى بعض النتائج

١- أن الباقلاني (رحمه الله) من أئمة المسلمين المعروفين بالفضل والعلم.

٢- أن الباقلاني (رحمه الله) تنوع نشاطه وإنتاجه، فقد كان فقيهًا أصوليًّا متكلِّمًا.

٣- لم يكن الباقلاني (رحمه الله) حبيس مكتبته أو أسير كتبه، فقد كان له دور فاعل ومؤثر على أرض الواقع في البيئة والعصر الذي عاش فيهما.

٤- تُعدُّ مصنفات الباقلاني (رحمه الله) إنتاجًا بكرًا له قصب السبق، قد يكون عمدةً في بابه الذي صُنِّف فيه.

٥- كان الباقلاني (رحمه الله) حريصًا على الدفاع عن دينه، منافحًا عن عقيدته، حارسًا لحياض السُنّة، بارعًا في ذلك ومتقنًا.

٦- كتاب التمهيد من أفضل ما صُنِّف في باب الردود العقلية والحجاج الفكري في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، وفي تفنيد شُبَهِ الطاعنين والمبتدعين.

المصادر والمراجع

١. إعجاز القرآن: الباقلاني (تحقيق: السيد أحمد صقر) (دار المعارف - مصر، ط ٥، ١٩٩٧م).
٢. الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به: القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (مكتبة الأزهرية للتراث، ط ٢- ١٤٢١ ه - ٢٠٠٠ م).
٣. البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات: القاضي الباقلاني (المكتبة الشرقية بيروت، ١٩٥٨ م)
٤. التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين: طاهر بن محمد الإسفراييني، أبو المظفر (ت ٤٧١ه) (عالم الكتب - لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)
٥. التقريب والإرشاد (الصغير): القاضي الباقلاني (تحقيق د. عبد الحميد بن علي أبو زنيد) (مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م).
٦. الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠ه) (دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).
٧. اللباب في تهذيب الأنساب: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) (دار صادر – بيروت)
٨. تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام: شمس الدين الذهبي (دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣ م) .
٩. تاريخ علماء الأندلس: عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو الوليد، المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) ،
١٠. تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ه) (الكتاب العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٤ ه)
١١. تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) (دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان)

١٢. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي (دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر، ط ١- ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م)
١٣. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (ت ١٣٦٠هـ) (دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م)
١٤. التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ) (دار الفكر للطباعة - لبنان- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م)
١٥. كتاب التمهيد: الإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني (المكتبة الشرقية -بيروت – ١٩٥٧ م)
١٦. كتاب تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل: تحقيق: الشيخ عماد الدين أحمد حيدر (مؤسسة الكتب الثقافية للطبع والنشر -بيروت- ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)
١٧. لسان الميزان: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، ط ٢، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م)
١٨. مجموع الفتاوى: ابن تيمية الحراني (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية- ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)
١٩. معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة (مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت)
٢٠. اجتماع الجيوش الإسلامية: ابن قيم الجوزية (مطابع الفرزدق التجارية - الرياض، ط ١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) .
٢١. إعجاز القرآن: الباقلاني (تحقيق: السيد أحمد صقر) (دار المعارف – مصر، ط ٣)
٢٢. البحر المحيط في أصول الفقه: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) (دار الكتبي، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)
٢٣. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ه) (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)

٢٤. التمهيد في الرد على المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة: الإمام أبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني (تحقيق: محمود محمد الخضيري، ومحمد عبد الهادي أبو ريدة) (دار الفكر العربي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -١٣٦٦ ه/١٩٤٧ م)
٢٥. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني (مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد/ الهند).
٢٦. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت ٧٩٩ه) (دار التراث للطبع والنشر، القاهرة)
٢٧. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، أبو منصور (ت ٤٢٩ ه) (دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ م)
٢٨. الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ) (مكتبة الخانجي – القاهرة)
٢٩. الفهرست: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (ت ٤٣٨ه) (دار المعرفة بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م)
٣٠. الملل والنِّحل: : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) (مؤسسة الحلبي)
٣١. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) (دار صادر - بيروت، ط ١، ١٣٥٨ه)
٣٢. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) (المكتبة العصرية - لبنان / صيدا) (٢/ ٢٤٧-٢٤٨).
٣٣. تاريخ التراث العربي (علوم القرآن والحديث - التدوين التاريخي - الفقه - العقائد): الدكتور فؤاد سزكين (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١ هـ- ١٩٩١ م).
٣٤. تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) (دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م)

٣٥. تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا): أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن الجذامي النباهي المالقي الأندلسي (ت ٧٩٢هـ) (دار الآفاق الجديدة - بيروت/لبنان، ط ٥، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)

٣٦. ترتيب المدارك وتقريب المسالك: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) (مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط ١- ١٩٨١- ١٩٨٣م)